

المرأة والشعر

يقولا فياض



اِلْتَارَة للاسْتِشَارَات

المرأة والشعر

تأليف
نقولا فياض



النابة للاستشارات

المرأة والشعر
نقولا فياض

رقم إيداع ٢٢٠٣٣ / ٢٠١٤
تدمك: ٣ ٧١٩ ٦٧٧ ٩٧٨
المؤلف: ٥٧١ ٣

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
الشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٦

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تلفيون: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٢٥٢ فاكس: +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

تصميم الغلاف: سحر عبد الوهاب.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي
للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2014 Hindawi
Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المرأة والشعر

ف أراك أشرف منتدى
م شبابه فتجدوا
د سناءه فتمجدا
سى والمسيح وأحمدوا
ء وراح دهرك منشدا
ك وعند غيرك يفتدى
تسمح بأن يتقيدا
والبحر في بعد المدى
ط لدى محيطك سجدا
صد من سماك المرصدا
قطر بفضلك قلدا
بسواك أصبح أسودا
ب فكنت أبهى مشهدا
ن نورك مذهبها وموردا
بحمى الهلال تأيدا
يا منتدى العلم الشرى
جددت للشرق القدي
وأعدت للعلم المجي
وجمعت حولك آل مو
فنظمت أحان الإخا
ذبح التعصب في حما
والعقل في التعليم لم
فجعلت فسحته السما
فأنتك أمواج المحي
وسعت نجوم الأفق تر
أغروس هذا القطر كم
لتبيّضي وجهًا لنا
أشرقـتـ منـ جهةـ الغـزوـ
فـ بدـاـ معـ الأـفقـيـ
ياـ أـسـبـيـ^١ـ الـوطـنـ الـذـيـ

ما زرت رب عك مرّةٌ إلا رجعت مردداً
هذه منارة رأس بيرٍ وَذَا عِلْمُ الْهَدِي

إخوان الفضل وربات الأدب، ويا أبناء هذا الربع الزاهر سلام، أحبيكم وأمام عيني
أشباح الأدباء والخطباء والكتاب الذين خرجوا من تحت هذه القبة المنيرة، والذين وقفوا
من قبلي على هذا المنبر السامي ولا تزال ترن بأصواتهم جدران هذا البناء، أحبيكم وفي
الفكر تذكريات عذبة لأيام كنت فيها صغيراً في الثالثة عشرة أو أقل، فكنت أسعى على
قدمي من مكان بعيد لحضور مثل هذه الحفلة، والتقط بعض الآلئ التي تدفعها
أمواج هذا المحيط المرتفع فوق شاطئ المحيط. أذكر ذلك العهد أيها السادة، وأنا على أحد
المقاعد صغير خامل لا أكاد أرى، وهناك كانت عواطفني تتدافع في صدري وإحساسات
أكبر من جسدي الضئيل تحاول الطيران بي عن مقعدي، وبينما كان الخطيب يتكلم
كانت عيناي تغادران أذنِي عند قدميه وتتجولان في الجمع متأملة ما يرسم قوله من
الإعجاب والسرور على الوجه، وإذا ذاك كنت أنسى المقام الذي أنا فيه وأطير بالتصور
فأتأمل نفسي وقد جزت مرحلة الفتوة، وببلغت الغاية من دروسني ودعيت لثل ذلك الموقف
خطيباً يسمع فيستحسن فتأخذني هزة الطرف، وتسكرني خمرة الفوز، وأصبح في بحر
الأحلام. نعم، إن آمالي لم تتحقق بدخولي المدرسة الكلية، ولكن الكلية مدرسة الجميع
وإذا لم يكن فضلها على سوى إحيائها في الميل إلى الأدب والخطابة فكفي، ولربما يسمع
كلامي الآن كثير ممن هم في الحالة التي وصفتها لكم، ولا يبعد أن يقفوا يوماً ما نظيري
في مثل هذا الجمع قائلين قولي شاعرين مثل شعوري.

ولقد كلفتني جمعية التعاون الأخوي وغيرها للخطابة قبل هذه المرة فرفضت؛
لأنني أخذت العهد على نفسي أن أهجر المنابر وإن كان ذلك على الكره مني، وأن أقتتنع
من نفسي بالطبيب دون الخطيب، ثم تكرر الطلب فنظرت إليهم نظري إلى مرضائي،
وتقاضيهم أجراًزيارة وكتبت لهم هذا الخطاب، وهي أول مرة رزقت بها من المنابر،
وما أنكر الحيرة والتعب اللذين وقفا في سبيل اختيار الموضوع وكتابته، فبقيت متربداً
حينما، ولم أشعر أبداً بمثل ما شعرت به اليوم، مع أنني كنت عالماً سلفاً أنني سأرى
وجوهاً تعودتها وأنظراراً ألفتها؛ لأن حضار الحفلات الأدبية بيننا هم لا يتغيرون، وهم
نخبة الأديبات والأدباء المتعلمين، وقد نال صوتي الضعف رضاهم في كل مرة أسعدني
الحظ بمحادثتهم فيها؛ وكان هذا الفكر داعياً إلى تشجيعي، وبقيت مع ذلك مضطرباً؛

لأن هذه الدعوة أعادت لي ذكر أيام الصبا، فكنت كلما قبضت على القلم لأكتب يتمثل لي ذلك الفتى الأصفر النحيل داخلًا بخشية إلى هذا المعهد ضائعاً بين الجموع وهو ينظر إلى هذا المنبر نظرة إسرائيل إلى الطور، فتعيق هذه الرؤيا قلمي. هذا الطور أيها السادة انتهت بي الأيام إلى الوقوف عليه، وهذا الشعب المنتخب إسرائيل الأدب مستعد لسماع كلامي فلأبتدئ.

جال في خاطري بادئ بدء أن أجعل حديثي معكم هذا المساء في الطب أو ما يقارب الطب، وإن كان في ذلك جنائية على نفسي وعلى السامعين إرضاءً للبعض من يزعمون أنه لا يحق للطبيب أن يتعدى دائرة صناعته، ويتوهمن أن بعض صفحات في الأدب يكتبه كل سنتين تشغله عن واجباته، ثم تركت هذه الفئة وشأنها واتخذت لكم موضوعاً أقل خطراً في تغميض الجفون يجمع بين الأدب والفكاهة والتاريخ والغرام، وفي الغد إذا احتاج أحد منكم إلىّ، لا سمح الله، جعلت منبرى أمام سريره وحادثته عن الطب ما شاء. موضوعي المرأة والشعر، أو الشعر والمرأة، وإذا قلت المرأة فليس غرضي الأخذ في بيان حقيقتها وإثبات حقوقها، ولا سرد تاريخها العجيب المحزن من عهد إنكارهم عليها الذات ليومنا هذا، ولا المقابلة بينها وبين الرجل، والنظر فيما إذا كانت هذه الرءوس الجميلة الطويلة شعورها كالأفاعي الساطعة أعينها كالنجوم هي رءوس ولدان، وأن الدماغ المستقر في هذه الجمجمة لا يساوي ثلثي دماغ الرجل وزناً، كلا بل ربما كانت المرأة أرقى من الرجل بالعواطف والشعور والتصور وقوة الاكتساب، فليخفض الرجل من كبريائه، ولا ينتظرن أن يراني عدواً لهن في هذه الليلة، بل أنا محدث عن المرأة من حيث هي كائن لطيف وضعته العناية إلى جانب الرجل لقربه إليه أسرار الطبيعة، وتفتح على قريحته بالغرائب. انظر إليها من خلال حجب التاريخ بعين الشاعر وكشاعر أسد لدى هيكل حسنها، وأقدم لها البخور مدائح وتسبيح من أقىدة مليئت بحبها وأدمغة اشتعلت بجمالها فجادت بأسمى الأقوال، وأبدع التصورات، وأرق المعاني التي خلدت مجد قائلها كما خلدت جمال الموحي بها، وما برحت فكاهة للأفكار جيلاً فجيل، أريد أن أقول وأؤيد قولى بالبرهان؛ إن العالم قاطبة مديون للمرأة بأنبغ رجاله في الأدب، فإن أشهر ما نسمع عنهم من فحول شعراء العرب والإفرنج الذين أتوا بمعجز القول، وبلغوا من الشهرة والمقام في قلوب الأمم ما لم يبلغه الفاتح العظيم؛ هم صنعة ذاك البناء اللطيف وخلقة تلك العين الدعباء، أريد أن أظهر ما هو معروف بالقرينة، ولكنه لم يكتب به درس خصوصي كهذا الدرس ليتلى في محفل لهذا، أريد أن أعرف الناس

بحقيقة الشاعر ثم أبين ما هو فضل المرأة عليه، وما هي نسبتها إلى الشعر وإليه، فهائناً ابتدئ بالشاعر ثم أنقل إلى المرأة الشاعرة، وأختم بتأثير المرأة على الشعراء.

(١) ما هو الشعر؟

لا يحد بكلمة ولا يحد بألف، خذ أخفى ما يكنته القلب البشري وأسمى ما يحمله الفكر البشري، وألبسه حلة من اللفظ الرقيق والقول الرشيق يكن لك الشعر، جسد أبيه صور الوجود التي تملأ العيون، وأجمل أصوات الطبيعة التي تسحر الأسماع، وألذ أنفاس الكون التي تُسْكِرُ الألباب يتمثل لك الشعر، فالشعر هو حركة أمواج، أمواج الخيال وأمواج الحقيقة، هو الروح ممتزجة بالملادة والمادة متحركة بالروح، الشعر هو اللغة الوحيدة التي تستولي على الإنسان بكل ما فيه من الإنسانية فتولد سلطتها في قلبه ودماغه وسمعه لتخرج منه أحياناً دوّي الزوبعة وأحياناً حفيظ الأوراق، ولهذا يفعل الشعر على سامعيه إذا أتقن فعل الصاعقة التي تقتلع الأشجار والصخور، أو النشيد الذي تُسْكِرُ به الأم طفلها في السرير. من أجل ذلك لا يمكن الشاعر كثير من الشعر الجيد في المرة الواحدة؛ لأن الشعر يجلب الضعف سريعاً باستيلائه على الفكر والروح؛ إذ يستنفذ بقليل من القول وقليل من الوقت كلَّ ما في الإنسان من القوة والحياة في قلبه ودماغه.

هذا هو الشعر فمن هو الشاعر؟

هذا هو الشعر فمن هو الشاعر؟ قال أحد كتبة الإنكليز الشاعر نبِيُّ والنبيُّ شاعر فكلاهما يشعران بالغواصين، كلاهما يقرآن في هذا السرُّ المكشوف، سُرُّ الكون الخفي الظاهر، النبي يبحث في الخير والشر، والمالح والمنوع، والاختيار والواجب، والشاعر يبحث في الجميل والقبيح، الأول يرشدنا إلى ما يجب أن نعمله، والثاني إلى ما يجب أن نحبه، ومن يفصل ما نحبه عما نعمله أليس الحب طريق العمل؟ وينطبق على هذا التعريف قول ابن المقفع أي حكمة أغرب أو أبلغ أو أحسن من غلام بدوي لم يَرِيَّا ولم يَشْبَعْ من طعام، يستوحش من الكلام، ويفزع من البشر، ويأوي إلى القفر واليرابيع والظباء، فإذا قال الشعر وصفَ ما لم يَرِيَه ولم يَعْهُدْه، ولم يعرِفْه، ثم يذكر محاسن الأخلاق ومساويها، ويقول ما يكتب عنه ويرُوِي له ويبقى عليه. الشاعر كما قال بعضهم ترجمان الطبيعة، أُرسل إلى العالم ليتمم لغة العالم؛ لأن كل ما يرى ويسمع يستنشق سُرُّ غامض الفناء،

فاكتفينا منه بما عرفناه، غير أن الشاعر يفضه بنظره البعيد وينفح في الجماد روحًا،
ويعطي الأبكم لسانًا، ويهب الأصم سمعًا، ويلبس كلَّ حالٍ لبوسًا جديداً، الشاعر كما
قال خليل أفندي الخوري:

حكم قانون به يجري العمل
فالصدى صوت تهاليل الملل
وهو حرُّ كييفما شاء فعل
خرجت حكمته ضرب مثل
معجزات قصرت عنها الحيل
مطلق القدرة ما قيده
وإذا أنسد وصفاً أو شداً
وصفات الناس في قبضته
كلُّ قول قاله بين الورى
وله في الكون من أعماله

ومن هذه المعجزات:

وقوام الغيد للطعن أسل
يقطف الوردة من خِدِّ الخجل
 فهو معه في حديث وجدل
ويراه في جنون من عقل
غزلت مقلتها غنى الغزل
يسبك اللحظ حساماً قاطعاً
يعصر الراح من الوجنة أو
ويناجي الطير في تغريده
يكسب العقل رشاداً وهدى
وهو في أسر مهاة كلما

الشاعر طير الإنسانية يغادرها من حين إلى حين هائماً في فضاء التصور، بل إن
الطير قد لا يرجع من سفرته، ولكن الشاعر لا بدَّ من رجوعه إلى العالم الذي هو منه
ليصلحه، فهو بين ذوات الأجنحة لا يعُدُّ من الطيور بل من الملائكة.

تاريخ الشعر وفائدته

وُجد الشعر مع الإنسان وسيرافقه إلى آخر الزمان، ومن ظنَّ أنَّ هذا الصوت سوف يتلاشى
فقد ضلَّ؛ لأنَّ الله هدى عبده إليه، وهو أول صرخ سما نحو عرشه من البشر، وقد كان
له في الأعصر الأولى قبل التاريخ عظمة الآلهة فحمل لواءه أورفه ليخضع به الوحوش
الشاردة وامثيلون ليعمِّر أسوار تيبة، ثم شهدنا هومر يخط به تاريخ عصره، وموسى
يسنَّ الشرائع لقومه، ودادود يسرج نبراس الحكمَة، وجوفنال يحمل مقرعة الضمير، وأبا
العلاء يفتح باب الفلسفة، ورأينا دانتي لاهوتياً زمانه، وشكسبير مصور زمانه، وفلتر

منتقد زمانه، وجوت مهذب زمانه، وهيجو أديب زمانه، قال أحد كتبة الأميركيكان: من الناس من لا يرى غير العمل فيحتقر الشعر والشعراء، ويصبح من يقول ولا يفعل جاهلاً أن العالم قسمان قسم خلق ليقول وقسم خلق ليعمل، وأن الطبيعة جميلة كما هي صادقة فعليها أن تظهر كما عليها أن تفعل. الشاعر كالبطل كل كلمة فيها له انتصار، وكل معنى فتح جديد، فإن أغاممنون ليس بأعظم من هومر، وشارلزان ليس بأكبر من شكسبير، ووظيفته كوظيفة أورفي التي كانت الوحوش تسرع إليه عند سماع أغانيه وتتعرى من أخلاقها الشرسة، فإن إنشاده يدوي في قلب الإنسانية ليخضع منها ما كان كالضواري والكواسر، فيزيل الشراسة والظلم ويعيد الرفق واللين، قال أشيل: خدم الشاعر الإنسانية منذ البدء؛ لأن أورفه بغض القتل إلى الناس وموسي علم الطبّ، وهزيود الصناعة، وهو مر الشجاعة، وأنا أتيت من بعد هومر أترنم بأوصاف ليتشبه بها أبناء وطني.

وقد كان للأمة العربية نصيب وافر من الشعر، وبلغ إكرامه عندهم أكثر مما بلغ عند غيرهم فجعلوه عنوان الفضل، وديوان الأدب، واتخذوه وسيلة لحماية أعراقهم والذب عن أحسابهم وواسطة لتخليد مآثرهم، ولم يكونوا يهينون بعضهم بعضاً إلا بغلام يولد أو فرس تنتج أو شاعر ينبع، فإذا نبغ شاعر أنت القبائل مهنته، ووضعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالماهر كما في الأuras، وقد كان لهم فيه سوق منافسة ومجالس طرب يحضرها ملوكهم ويشتركون معهم فيها، وكثيراً ما حمل الواحد منهم صولجان الشعر والملك في وقت واحد وجعل النظام في قوله وفعله معًا، وقد بلغ من تأثيره عندهم أن بيّناً أذكى نار الحرب بين أمتين وأن لهم سجدة سموها سجدة الشعر، ومن نكاتهم في هذا الشأن أن قبيلة اسمها أنف الناقة كان إذا ذُكر أحد عند أحد منهم هذا الاسم فضلاً عن نسبته إليهم أثار غضبهم عليه بما إلا أن قال الحطيئة يمدحهم:

قومٌ هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنيبا

فانقلب هذا اللقب إلى فخر، وصاروا إذا سُئل أحدهم الانتساب لم يبدأ إلا به. في القوة الفكر البشري يغير بكلمة القلوب، ويصرف مجاري الأهواء شأن الدفة بالسفينة، وهل في إمكان غير الشاعر أن يفرغ مثل هذه الألفاظ في مثل هذه الصور، لما سُئل كمبون أحد قواد نابليون التسليم في واقعة واترلو لفظ وهو في حال الهياج الشديد بين عوامل الغضب واليأس كلمة منكرة بذئنة فعلت في قلوب ذويه ما لا تفعل

ألف قصيدة، وقد أخذ هيكل هذه الكلمة فملأ بها ثلاثة صفحات من أبلغ ما خطّ في كتاب المؤسأء، فلا ريب أن قائل هذه الكلمة ككاتبها شاعر.

كيف، ومتى يصير الإنسان شاعراً؟

كل إنسان شاعر إذا أردت؛ لأن حب الطبيعة راسخ في كل قلب، وصورتها ماثلة لكل خيال، فالصياد وسائس الخيل، وراعي الأغنام شعراء، ولكن الفرق بينهم وبين الشعراء المعروفين بهذا الاسم أن هؤلاء يعبرون عن شاعريتهم بانتخاب لغتهم وأولئك بانتخاب طرق معيشتهم، هذا بإطلاق النظر، وأما الشعر الصحيح القائم بتصوير الجمال فلا يُنال بمجرد الرغبة والناس فيه طبقات، فالرجل الذي يُحسن قراءة الشعر شاعر، وكلما زاد شعور المرء رقةً واتسعت مقدراته في التعبير عن ذلك الشعور لامس أسرار الشعر، وكلما اتسعت حلقة المتأثرين بشعره علا مقامه الشعري حتى إذا ضرب على أوتار كل فؤاد كان الشاعر العظيم، وهذا لا يكون إلا من رُزق ذهناً صافياً، وخلقًا رقيقاً، ونفسًا طائرة يمكنه بها أن يرتفع نحو تلك الطبقات العلوية حيث الهواء موسيقى لا يسمع أنغامها كل آذان البشر، وبالجملة فالشعر هو صوت الإنسانية منحصر في أفواه البعض ومن فاقوا الإنسان.

هل بلغ شاعر حدّ الكمال؟

نعم ولا. لأن الشاعر طائر مجاله اللانهائية فلا يصلُ إلى قمة إلّا برب له أعلى منها، نعم؛ لأن الفكر البشري حدًّا من النبوغ لا يتعداه، فكما أنَّ الماء الغالية لا يتجاوز مائة درجة بمقاييس سنتغراد فيما أشتَدَّ غليانها، كذلك الفكر البشري إذا سما له حدًّا يقف عندـه، ومهما غلا لا تتجاوز حرارته مائة سنتغراد، وهذه الدرجة قد يبلغها بعضهم من الشعراء كما يبلغها بعضهم من الفلسفـة، وهذا هو الفرق بين العلم والشعر، فالشعر يبلغ الكمال؛ لأنه لغة القلب والطبيعة الثابتة، والعلم لا يبلغ الكمال؛ لأنَّه لغة الاستقراء والتنقيب، وكم هدم في يومه ما بنـاه في أمسه، جاء هومـر، وسلـيمـان، ودانـتي، وشكـسبـير، والمـعـرىـ، وفرـجيـلـ وكـثـيرـ غـيرـهـمـ وجـاءـ بـقـرـاطـ، وابـنـ سـيـنـاـ، وأـرـخـمـيـدـسـ، وـغـلـيـلـهـ، وـنيـوـتونـ، ولـفـواـزـيـهـ، وـسـبـنـسـرـ وكـثـيرـ غـيرـهـمـ، فـمـاـذـاـ كـانـتـ النـتـيـجـةـ؟ـ يـأـتـيـ العـالـمـ فـيـبـيـنـيـ عـلـىـ أـنـقـاضـ سـلـفـهـ أوـ يـزـيدـ مـنـ عـنـيـانـهـ مـاـ يـغـيـرـ الصـورـةـ المـأـلـوـفـةـ وـأـمـاـ الشـاعـرـ فـلـاـ خـذـلـاـ التـلـسـكـوبـ

مثلاً، فقد أوجده متيوس صدفةً كما وجد نيوتن الجاذبية، وجاء غليله فحسن باكتشاف متيوس، وجاء كيلر فحسن عمل غليله، وجاء ديكارت فكمل عمل كيلر، وجاء الأب ريتيه فزاد عمل ديكارت، وجاء هو يجانس فزاد على عمل ريته فلم يمض ٥٠ سنة حتى بات متيوس نسيًا منسيًا وصار الجديد قديمًا. خذوا التلغراف مثلاً آخر فمن تاليس أو فلاسفة اليونان الذي رأى أنَّ الكهرباء بالفرك تجذب الأجسام، إلى جيلبر الإنكليزي الذي وجد الجذب أيضًا في غير الكهرباء كالزجاج والكبريت والشمع الأحمر، إلى ليمونيه الذي قال باجتياز الكهرباء على شريط موصل، إلى وطسن الذي قال بصلاح الأرض والماء لإيصال الكهربائية، إلى كلفن مكتشف الكهرباء في الصدف، إلى فولته الذي وصل المجرى الكهربائي بين النحاس والتوكينا، إلى أمبر وفرادي اللذين بحثا في تحريك الإبرة المغناطيسية في طرف السلك المكهرب لرسم الأحرف، إلى موريس الأميركي الذي كمل العمل من تاليس إلى موريس مسافة قرون عديدة سعى فيها الإنسان لاختراع آلة التلغراف فلم يلبس إكليل الظفر إلا واحد، ثم جاء ماركوني باختراعه الجديد فترك الجميع وراءه، ومن يدرى أيُّ اختراع يخبئه لنا المستقبل تشتراك فيه العين مع الأذن، فينقل الصوت والصورة معاً وتتم نبوة الشاعر الطرادي:

غنت سليمى في الحجاز فأطربت مع بعدها أهل العراق نشيدا
ولسوف إن رقصت بمصر فقد نرى في أصحابها لقدها تأويدا

بلى قد تمت هذه النبوة أيها السادة، وقرأنا في جرائد العلم الحديثة شيئاً من هذا
لم يزل في حداثته.

خذوا كتاباً طبياً أو علمياً مطبوعاً في صدر المائة الفائتة فقلما لا تجدون فيه أغلاطاً، كانت حقائق تقود عقول الآلوف من الناس لذلك العهد، وسيأتي زمان يغير من حقائق اليوم فلا يثبت منها إلا ما رسم بطول التجارب، ولا يبلغ العلم الكمال إلا إذا صارت كل حقائقه أوليات، وافتضلت العقول جميع أسراره الغامضة. أما الشعر فهو كالأوقيانيوس موجة تذهب وموجة تجيء، أو كالريح يتغير صوتها ولا يتغير جوهرها، شكسبير عظيم ولكنه ليس أعظم من دانتي، وأبو العلاء شاعر إلا أنه ليس أشعر من المتبي، فالعلم سلم يصعد فيها العالم فوق العالم أكثر الأحيان، وأما الشعر فحفيق أجنحة في الفضاء الواسع أيها السادة.

الله يتجلّى للإنسان في صورتين: صورة من خلال العالم وهذا هو ما يسمونه الطبيعة، وصورة من خلال الفكر البشري وهذا هو ما يسمونه الشعر، فالشاعر والطبيعة صنوان، وطالما خدمت الطبيعة الشاعر فكانت له كتاباً مفتوحاً يشغل فكره وبصره فلا ينصرف عنه إلا ليقرأ في كتاب آخر هو كالطبيعة سعةً وجمالاً وغموضاً، وهذا الكتاب هو المرأة، أقول المرأة كالطبيعة ولا أكذب؛ لأن الطبيعة حاوية اللانهاية والمرأة فيها شيء من اللانهاية، والطبيعة جامدة كل ما يمثل الجمال ونقضيه، والمرأة لها كل ما يدل على السمو وعكسه تاهيك عن ذلك، فما الذي يأخذ بالأبصار والأفكار غير الكواكب في السماء، والأزهار في الرياض، والطيور في الهواء، ومن ذا لا يرى في المرأة سراً من الكواكب وسراً من الأزهار؟ لا تشعر أحياناً بحيف أجنحتها كالألطياز؟ وإذا مررت بالروض في الربيع لا ينفتح صدرها افتتاح الزهر لندى الصباح الطلق؟ لا تحس بقرابة بينها وبين تلك الحياة القصيرة التي صباحها أزهار ومساؤها ذبول، لا تميل إلى مناجاة تلك الزهرة ومداعبتها فتصافحها بيدها وتضمها إلى شفتيها، ثم ترفعها فوق عرش جبينها وتقول لها: إجلي، فهنا أيضاً روض فيه ورد الخدود ونرجس العيون، هل وقف الشاعر أمام البحر العجاج يسرير غوره العميق، ثم قدر أن يكتشف من المرأة أكثر مما اكتشف من البحر، هل كان ضباب الكون وظلمة الشتاء غريبين عن عواطفها أولى بـ كهربائية الجو وмагناطيس الأرض من صفات جسمها الناري؟ هل في صفحة الوجود المفتوحة أمامنا سطر لا يخاطب المرأة بمعنى؟ لا ريب أن وجه الشبه عظيم بين هذين الكتابين، من أجل ذلك كان الشاعر ولم يزل مدفوعاً بالعاملين معاً فكلما تكلم عن الطبيعة ولم تكن المرأة مصدر إلهامه، وكلما تكلم عن المرأة ولم تكن الطبيعة موضوع كلامه.

ولما كان الشعر لغة العواطف كالموسيقى كان له تأثير عظيم على المرأة فكم خدعت به حسناء، وكم غالب الحسن والكبرباء، وكم رد بعض الناس قول أبي نواس:

وَمَا زَلْتُ بِالأشْعَارِ حَتَّىٰ خَدَعْتُهَا وَدَلَهْتُهَا وَالشِّعْرُ مِنْ خَدَمِ السُّحْرِ

وقد آثرت درسه على غيره من الفنون للنسبة التي بينه وبين رقة شعورها وغنی معانيها وشدة تصورها، فنبغ في الشعر نساء يذكر لنا التاريخ منهن عند كل الأمم وهائئذا ألم بالقسم الثاني من موضوعي ...

(٢) المرأة الشاعرة

ما كفاكِ يا سيدتي ما جمل الله به هيكلِ اللطيف؟ ما كفاكِ أنه عطر أنفاسك بالنسيم الذي يهب على زنابق الحقل واستعار لتنهدات صدرك حركة أمواج البحر، ووضع في صوتك نغمة الشحور في الغاب، وكسي حلقة جسدك بهاء الورد في نيسان، وجعل أحاطلك مرأة السبع الطباقي؟ ما كفاكِ ذلك فأحبيت أن تضييفي إلى فصاحة عينيكِ فصاحة بيانك، وتزيدي على طلقة محياكِ طلقة بنانكِ وتتسكبى الخمرة من خديكِ ومن لسانكِ، وتجعلى السحر بين شفتينِ كما هو بين أجنفانك.

ما كفاكِ أنك صفت للشعراء أكاليل الغار فأحبيت أن تلبسيها أمامهم ففرزت بذلك، وكأني في العصور الأولى بين رومة واليونان أرى في الجهة الواحدة كارتنا تختلب الألباب بشعرها الجميل وتشيد لها هيكلًا، ولايس الكورنтиة تُسحر العقول بفصاحة لسانها، وطلقة جنانها، وأريبيدس الشهير مطرقاً رأسه أمامها خجلًا مبتعداً عنها وجلاً مظهراً قصوره جهاراً تاركاً بلاده اضطراراً، وأرى في الجهة الثانية مرتيس تلقن الشعر بندار وكوريين تسابقه في ميدان الأولب، ودفني بنت تريزياس تظهر العجائب وتوحي هوميروس، وأسمع بالقرب من شواطئ بلادنا صدى أنغام سافو آلهة الشعر العاشرة ترددتها ضفاف جزيرة مثلين وأمواج البحر حواليها، ثم تنقلب أمام عيني صفحات التاريخ فأرى عدد الشاعرات يتکاثر في القرون الوسطى، ولا سيما في إيطاليا؛ إذ لم تخل مدينة صغيرة من شاعرة كبيرة، وتنفتح صفحات الأمم فأسمع إنشاداً مختلفاً تحمله إلى أصوات الغانيات من فرنسا، وإيطاليا، وبروسيا، وإنكلترا، وألمانيا، وروسيا، وأعرف من بينها صوت جورج ساند تدرس الأخلاق، ومدام ستايل تحرك العواطف، ومسز بروزن ترسل نظرها الرقيق إلى نقائص الحياة وأحزانها، وقد استحسنت أن أنقل لكم أنموذجًا مما تجود به قرائح الغادات تحت سماء المغرب، وهي أبيات لمسز بروزن التي قال بها بعضهم قرأت من أشعارها فعدت نصف سكران، فعزمت أن لا آخذ مثل هذه الجرعة الشعرية مرة ثانية، والقصيدة عنوانها «صراخ الأطفال».

صراخ الأطفال

قبل أن تعرف الأسى والشقاء
يتعزى لو كان يرضي العزاء
وخراف الحقول تمعي معاً
بשذاها يعطر الأرجاء
بات يبكي ويستلذ البكاء

هل سمعت الأطفال يا صاح تبكي
كل طفل في حضن من ولدته
العصافير في الرياض تغبني
وابتسام الأزهار كل صباحٍ
إنما الطفل وحده يا صاحبي

* * *

راح يبكي ودهره ما أساء
مرّ أو يومه الذي قد جاء
تلعأ أيدي الخريف عنها الرداء
قصر طول الزمان عنها الشفاء
فيمضي ولم نجدد رجاء
ما الذي في البكا له قد تراءى

هل سألت الطفل الصغير لماذا
يذرف الشيخ دمعه لزمان
وغضون الأشجار تحزن إذ
وجراح الأبدان تؤلم إن
وقديم الرجا يضيعه الدهر
إنما الطفل وحده لست تدرى

* * *

وقليل منا يجيء النداء
ولنا أرجل تحاكي الهواء
خطوات وقد سقطنا عياء
بعده قد غدا يطيل العناء
لا صغاراً في أرضهم غرباء
نحن جئنا هنا نقاسي البقاء

هذه أدمع الصغار تنادي
أرضكم ظلمة ونحن صغار
ما مشينا عليك يا أرض إلا
فمتى نستريح والقبر عنا
فسلو الشيخ ما دعا لبكاه
راحة القبر للشيخوخ ولكن

وقد كان للغة العربية حظ وافر من أقوال هذا الجنس؛ فأبقى لنا التاريخ في عداد
الشاعرات ليلي الأخيلية، وخنساء صخر، وجنوب وغيرهن، أوليست عليه بنت المهدى قائلة
هذا البيت الشهير:

فإذا تمكن صار شغلاً شاغلاً

الحب أول ما يكون مجانية

ومن لا يسمع بقصة تلك الفتاة التي مرت بالأعرابي وهو يردد هذا الشطر «نسج الريح على الماء زرد» دون أن يهتدي إلى إتمامه، فقالت له على الفور: «يا له درعاً منيغاً لو جمد»، وهل في وسع الشاعر المجيد أن يأتي في هذا الصدد بأبلغ مما قالته الفتاة؟ ومن الأخبار التي تتناقلها الرواية أن المهلل عندما أراد به العبدان تنكيلًا سألهما أن يبلغا بنتيه سلامه، وهذا البيت الذي لا معنى له «من مبلغ بنتي أن مهللاً الله دركما ودر أبيكما»، فلما عاد العبدان قاما بالوصية وهم لا يفقهان مرموزها، ولكن البنت أدركت ما وراء هذه الألفاظ الغامضة، وقالت: هذا البيت لا يلتحم صدره بعجزه وإنما أراد أبي أن يقول:

من مبلغ البنتين أن مهللاً
أمسى وأصبح بالتراب مجنداً
للله دركما ودر أبيكما
لا يبرح العبدان حتى يُقتلا

ويُحكي أن أبو بكر الخوارزمي سأل الدخول يوماً على كبير فقيل له: لا يؤذن بالدخول إلا لمن حفظ عشرة آلاف أرجوزة من الشعر، فقال أبو بكر: سلو الأمير من شعر الرجال يُريد أم من شعر النساء؟ فإذا كان أبو بكر وهو واحد يحفظ عشرة آلاف أرجوزة من شعر النساء؛ فما قولك بغيره من كتبه وشعراء ذلك العصر، وكم يبلغ إذن عدد الشاعرات لعهد هذا العالم، لا ريب أن دماغ المرأة العربية كان كجسمها في القوة والنماء.

(٣) تأثير المرأة على الشعراء

وصلت إلى القسم الثالث والأخير من موضوعي: تأثير المرأة على الشعراء. أيها السادة، ما يوجد من وراء الغيوم، من وراء الأحراج، من وراء الجبال، من وراء الثلوج الأبدية، من وراء الأوقيانوس، من وراء النجوم، من وراء العالم؟ ما الذي تطويه أعماق البحار، وتخفيه طبقات الأنثى، وتسره دقائق المادة؟ عبّاً تركض النفس في فضاء اللانهاية فإنها لا تجد في طريقها إلا الحب.

والعجب أن هذا الواقع أمامكم الآن كيما أجال فكره يعثر قلمه بهذه اللفظة، فقد أراد أن يحادثكم عن الشاعر فلم يزدًا من الكلام عن المرأة، ومن ذا يتكلم عن المرأة ولا تنسكب قريحته في فؤاده قبل أن تنسكب في مداره، ولقد تسائلت مرارًا ما هذه

القوه التي يكتسبها الفكر البشري فينشر بها أججنته في أكناf الفضاء، ويخرج بأనواره حب الخفاء، ثم يجمع من الألفاظ ما يموت ويحيا على كل لسان فيؤلفه نظاماً فريداً ويفرغه قالباً جديداً، ثم يمثله للسمع؛ فإذا هي خمر تدب في التفوس وسحر يسطو على الرءوس ونسيم يهب بالعواطف فيثير شرارها أو ماء تمشي في الجوارح فتبرد أوارها تساعل ما هذه القوه، فأجابتنى الألحاظ بنبالها وذكرتني مصرع أبطالها، فعلمت أن الحب وحده شرارة الوجود تلهب القرائح كما تلهب الخود ...
ولا بأس بعد أن ذكرت لكم هذا الطفل الصغير أن أروي لكم عنه هذه القصة الصغيرة:

قد قيل إن الحب أهدى مرة
فاختار منها زهرة حتى إذا
هجمت عليه نحلة محظوظة
ولامه قانون أقبل نائحاً
ويقول قد أدمت بناني نحلة
أمهاد قلت حيلتي جلديوها
فتتألمت قانون عند سماعها
لكنها ابتسمت له وتلطفت
يا أيها الطفل الغريب بطبعه
إن كان لذعة نحلة بك أثرت
ماذا يحل بمن سهامك لم تزل

باتقات زهر للحبيب تطيبُ
ما شمها والشم فيه غريبُ
فيها فعاد وكفه مخضوبُ
يشكوا العدو ودممعه مسكونُ
ما رد عنني قوسى المرهوب
أمهاد ما لي في الحياة نصيب
شكوى إله الحب وهو يذوب
بالقول وهو لصدرها مجدوب
عن صرعر العاشق لست تتوب
فظننت أن الموت منك قريب
ترمي قلوبهم بها وتصيبُ ...؟

هذا ما قالت قانون لطفلها المحبوب، أما أنا فأقول ليضرب الحب بسهامه القلوب
ما شاء إذا كان النبوغ بين الحاء والباء.

يا سادة، خلق الله لنا الماء لنروي به الظماء، ولكن هناك ظمآن آخر لا يرويه الماء وهو الظمآن إلى المجهول، من الناس من يطلب السكر بالخمرة مثل نوح، ومنهم من يطلب السكر بالمرأة مثل سليمان، والسكر في الحالتين يفتح أبواب هذا المجهول؛ إذ يفصل الإنسان حيناً عن عالم الهيبولي ويرفعه إلى مقام الآلهة، إلا ترى أن شارب الخمرة لا يصدق كل ما يقال عنه من السوء فقد يكون ذلك لأنه في حالة ثموله يشعر بأفلاته حيناً من أسر المادة والتراب وعمره في بحر الخيال، وهكذا الشاعر فإنه يشعر وهو تحت سلطة

المرأة وتأثيرها بتلك الحرية التي ترفعه إلى المأة الأعلى وتفتح لقريحته أبواب التصور المغلقة والمعاني السامية، ويقال: إن هذا الظمآن الذي لا يُروى واصل إلينا بالإرث من أمنا حواء؛ فقد رأت التفاحة مرة وأكلت سليمان ومن بعدها رأى المرأة يا سيداتي مرّة وأخذ سبعمائة.

قال بعضهم: إن الشاعر يجيد إذا أطلقت قريحته من عقال التقيد، وأضيافته إلى قوتها قوة المنبهات؛ لأن تنبيه الذهن يفتح أمامه طريقاً جديداً في الطبيعة فيندفع العقل إلى أمور أخرى، ولهذا السبب ترى الشعراء مغزى بالتنبيذ والجعة والقهوة والشاي والأفيون والعطور والتنباك وكل ما ينبه عواطف السرور، وتراهم يستحسنون السمر، والموسيقى، والصور، والتماثيل، والرقص، والسفر، والنار وما شاكل، ولهذا السبب أيضاً تجد كثيراً غير الشعراء ممن وقفوا قواهم العقلية للتعبير عن الجمال كالصوريين والممثلين منهمكين بحياة اللهو والبذخ والإسراف، قال عبد الملك بن مروان لابن سمية: هل تقول الآن شيئاً؟ قال: لا أشرب ولا أطرب ولا أغضب فلا يقال الشعر إلا بواحد من هذه. كل هذه المنبهات تزيد قوة التصور وتفتح للعقل أبواب عالم مجهول، ولكن الشاعر قد يستغنى عنها كلها بمنبه واحد وهو المرأة، فالمرأة قهوة الشعراء وأيقونهم هي نارهم وهي دخانهم، قال اللورد بيرون: تأثير المرأة عجيب علىَّ مع ما أنا عليه من سوء الظن بهذا الجنس، فتراني أشعر بلذة غريبة إذا كانت المرأة بالقرب مني ولو كانت خادمتني التي تُوقد لي النار، وما من شاعر نبغ إلا كانت المرأة مهملاً عقله وزناد تصوره ومفتاح قريحته، وحيث لا مرأة ولا حب فالشعر بارد ولا حياة فيه. لنفرض أن المرأة مُحيت من سفر الوجود لا سمح الله والناس كلهم أبطال وجباروة، فماذا يخلق الفكر البشري؟ ماذا يعمل بدونها المصور أمام لوحه والنقاش أمام حجره، وماذا يعني الشاعر والموسيقى؟ ماتت قانوس فسقط آخر حجر من هيكل الحب وأخر بيت من الشعر، ولا ريب أنه لم يفهم معنى الشعر، ولم يذق لذة الوحي أولئك الذين جهلوا قدر المرأة فذروا عليها الرماد وقصوا شعرها الطويل، وطفوا عينيها بالدموع.

والتأريخ يثبت لنا علاقة النساء بالشعراء وتأثيرهنَّ عليهم، فقد كان الإنسان في الأعصر الأولى بعيداً عن جمال الشعر؛ لأنه لم يكن يعرف غير القوة وما رفع للجمال هيأكل إلا بعد أن أشبع الأرض من صبيب عرقه فسرت حينئذ في فؤاده حركة غريبة، وهبت على عواطفه نسمة جديدة جاوبتها أوتار قلبه بنغمات الهوى وأشعار الصباية، فسمعنا أوفيد في الرومان يستمد الإلهام من جوليا، وفرجيل ينشد حب كاليوس وليكوريس، ورأينا

داليا ترسل شاعر الوحي إلى تيبول ورومانينا إلى ماتاستاز، وبروسبر وكانول يكتبان على أقدام ليسسيي وسنتي، وأرانا دانت السماء من ابتسامة بياكتريس، وحيث مراسخ فرنسا في شاعريها راسين، وكوريفل مدام مثنون، وبنت المركizza ربوبية، ولولا المرأة ما اشتهر في روسيا بوشكين، ولا جامي في الفرس، ولا كات عند الآلان، ولا ازدانت اللغة العربية بأفصح ما ينطق به لسان، وأبلغ ما يجري به فكر، ألم تسمعوا بأولئك الذين يكتشفون مصادر المياه بقضيب من البندق؟ فإن للمرأة أيضاً هذه القوة المغناطيسية، فهي تعرف أين كنت ينابيع الفصاححة في القلب البشري، وتحمل قضيب السحر الذي تفجر به ينابيع الدمع السرية لتنظم منها أكاليل النوافع وترسم أقوالهم على صفحات القلوب وصفحات الدهور، ولا أقصد هنا الإحاطة بكل شاعر خلقته الألحاظ وصنعته العيون، بل ذكر ما يسمح به المقام؛ فاختار من الفرنسيين ثلاثة من شعراء العصر الماضي، بل شعراء كل عصورهم هيكل وموسي ولamarتين، ومن الإنكليز بيرون، ومن الفرس حافظ، ومن الألمان كات، ومن العرب أميرهم إمروء القيس، وفارسهم عنترة وغيرهما من الملودين، ولا تنتظروا أن آتي على ترجمة حياتهم، أو ذكر ما بلغوا من الشعر والشهرة في بلادهم وسائل الأقطار، فإن ذلك يطول بي، ولا أطبع بترجمة أقوالهم لأن الترجمة لا تفي لإظهار شاعرية الشاعر، بل أنا ذكر بإيجاز على سبيل المثل والفكاهة تأثير المرأة على هؤلاء وعلاقتها بشهرتهم ونبوغهم، وأنقل لكم أبياتاً قليلة لبعضهم.

هذا هيكل أمير شعراء الفرنسيين لم تنطلق قريحته بمعجزات القول الباهرة إلا بعد الثلاثين من سنّيه عندما جمعته المراسخ بالممثلة مدام دروه، فإن الألفة التي انعقدت أسبابها بينهما حينئذ أثارت في فواده تلك النار الكامنة، وإذا كانت رواية هرناني قد أُلقت قبل ذلك العهد فهي واحدة من معجزاته، وما قوله بالبؤساء، والقصاصين، وربيلاس، وبيركراف، وتاريخ العصور وأوراق الخريف، والسنة الهائلة، وبقية تلك السلسلة الطويلة الدالة على قوته الخارقة؟ وكانت زوجته عالمة بما بينهما من الحب فلم تعترض وإن عذبها ذلك كثيراً؛ لأنها كانت تجد من نفسها العجز عن أن توحى إليه الحب، وتعلم أن هذه الحبيبة لازمة لزوجها لزوم الخبز والماء، وأن لها مرجع الفضل بما يتناول العالم من فيض هذه القرىحة. وقد قضى هيكل خمسين سنة تحت سلطة هذا الحب فلم يفصله عنها غير الموت، ولولاها ما حفظ الربيع في فواده بالرغم عن ثلج الشتاء الذي كل رأسه.

وهذا ميسه شاعر الهوى كل أبياته أنين وشكوى ودموع بألفاظ أرق من الدموع، ولি�اليه الأربع مشهورة في الأقطار الأربع، ومنها ما نظم على أثر جورج سوند الشهيرة التي ملكت فؤاده ثم آثرت بعاده، وكذلك قصيده بعنوان الذكرى فليس في وسع القلب البشري أن يرسم خفقانه وتأثره بأحسن مما رسمه ميسه في شعره الرقيق، وكنت أود أن أقابل بينه وبين ابن ربيعة والبهاء زهير فإنهما لم يبلغا شاؤه في رواية الجمال وجمال الرواية، فأترك ذلك الآن، وأكتفي بأن أنقل لكم أبیاتاً نظمها للغناء عنوانها «اذكري».

اذكري (الفرد دي ميسه)

فاتحًا للشمس قصرَ الذهبِ
راكضًا بين جنودِ الشهبِ
نغم اللذات وقت الطربِ
لذة الأحلام عند المغربِ
صارخ فيها يناديك اذكري
اذكريني كلما الفجر بدا
واذكريني كلما الليل مضى
وإذا ما صدرك ارتجَّ على
أو دعاك الظل يامي إلى
فاسمعي من داخل الغاب صدى

* * *

فاصلًا ما بيننا للأبدِ
من رجاء لفؤادي الكمد
ووداعًا ذاب منه كبدي
غلبَ بعد وطول الأمدِ
منك والقلب يناديك اذكري
اذكريني إن غدا صرف القدر
يوم لا تبقى الليالي والعبور
واذكري حبًا به قلبي انفطر
وإذا الحب على القلب انتصر
وأنا ما عشتُ يكفيوني خبر

* * *

ويضم الترب ذا القلب الكسير
زهرةُ القفر على قبري الحقير
إنما نحوك روحي تسطير
جاعلاً حبك لي خير سمير
هاتفًا في ظلمة الليل اذكري
اذكريني عندما ألقى المنونا
عندما تفتح للفجر الجفونا
لن ترى من بعدها ذاك الحزينا
وبها أبقى على العهد أمينا
واسمعي من جانب القبر أنينا

وهذا دانتي شاعر الإيطاليان يصف لك فعل الحب به في كتابه الحياة الجديدة، وبين لك كيف كانت المرأة وهي أيامه الأزلي، وصلة أفكاره بين الأرض والسماء والحقيقة

والخيال والبشر والملائكة، والغريب أن هذا الشاعر لم يجتمع بحبيبه بياكتريس، ولم يحادثها مرة بل أحبها مجرد نظره إليها، وبقي هذا الحب حيًّا في فؤاده بعد موتها فأوحي إليه كتاب الجحيم والفردوس والمطهر.

وهذا بين الشاعر الإنكليزي تشبه أشعاره أمواج البحر المتلاطم، وزوابع الليالي الحالكة وتسيل منه كما يسيل الدم من الجرح لولا الحب ما انتشر في فؤاده ظلام اليأس والسوداء، وفي قريحته نور ذلك الذكاء وهو القائل:

قد خضتْ أمواج البحار وخضتْ أَم—
واج الغرام فلم أجد غير الشقاء
فرثيت للنوتى إلا أَنْتِي
الفيت حال الصب أجدر بالرثاء

وهذا حافظ الإيراني آخر حلقة السلسلة الشعرية التي تُفاخر بفردوسي، ونظمي، وعمر الخيام، وجلال الدين، وسعدى، وجامي فقد شرب كأساته الهوى متربعة، ولا يأس بأن نروي لكم ظريفة حفظت لهذا الشاعر؛ وهي أن بعض غزلياته طرقت مسامع تيمورلنك الفاتح الشهير فرأى فيها أن الشاعر يهب مدينة سمرقند وبخارى فدًا للخال الأسود على خد حبيبته، فلما أخضع تيمورلنك فارس استقدم الشاعر ووبخه على هذا الكرم الكاذب بإعطائه الحببية مدنًا لا يملك منها على شيء، إلا أن الشاعر استتجد ذكاءه وقبل الأرض بين قدمي الفاتح وقال: يا سلطان العالم لم أصل إلى هذا اليوم السعيد بالمثلول بين يديك إلا بفضل هذا الكرم.

وهذا بوشكين الروسي الذي لقب باديء بدءٍ بين الروس ما اشتهر إلا بقوة الحب الذي جاوز الغاية منه فأودى به في مقتل العمر بمبرزته أحد القواد؛ غيرة منه على زوجته الجميلة، وكانت سلطته عظيمة على عقول أبناء عصره فجاء نبأ موته كالصاعقة، واضطررت الحكومة إلى دفعه ليلاً حذرًا مما لا تُحمد عقباه.

وهذا لامارتين الملقب بعاشق الفير يروي لنا بنفسه وقائع صيانته في كرازيلا وغيرها، ومن قرأ روايته رفائيل رأى صورة هذا الشاعر الحقيقية ماثلة من خلال كل سطر، ومدار الرواية على فتاة تبنها شيخ من أعضاء المجمع العلمي الفرنسي، ثم تزوج بها فتعرف إليها لامارتين في إحدى سفراته وعقد معها مواثيق الحب الطاهر، ثم افترقا على أمل اللقاء فما فسح الموت لها بذلك، وكان الشيخ على علم من حبهما فأرسل إلى لامارتين رسائله التي كان يكتبها لها في غربته مع خصلة من شعرها وهي عروس القصيدة الشهيرة البحيرة، ولا أعلم من دعا على لامارتين، وأي ذنب جناه هذا الشاعر

حتى وصلت قصيده إلى لأترجمها، فإني مع علمي بعجزي عن حفظ معاشر محاسن الأصل لم أحجم عن ركوب هذا المركب الخشن، وهأنذا أُلقي عليكم بضاعتي فقد تلمون من خلالها بصيصاً من ذلك النور الساطع، وتشتمون من جانبها أثراً من عرفها الطيب.

البحيرة (للamaratin)

نطوي الحياة وليل الموت يطويانا
يجر الوجود ولا نلقى مراسينا
كانت مياهك بالنحوى تحيننا
والليوم للدهر لا يرجى تلاقيننا
عني الحبيبة آي الحب تلقينا
وطالما حملت فيه أغانينا
تلطم الصخر حيناً والهوا حيناً
من رغوة الماء كف الريح تأمينا
تجري ونحن سكوتٌ في تصابينا
معنا فلا شيء يلهيها ويلهينا
يحال توقعها العشاقد تلحينا
فخلت أنَّ الملا الأعلى يناجينا
بهذه الكلمات الموج مفتونا
من قبل أن نتملى من أمانينا
نلتذ بالحب في أحلى لياليينا
وطر بهم فهم في العيش يشقونا
وخلنا فهناءُ الحب يكيفنا
فاللوقت يفلت والساعات تفنينا
مزقاً منه ستراً بات يخفيانا
يجري ولا وقفة فيه تعزينا
إلى الفناء فيلبي وهو يلينا
في ليله الأبدِيِّ الدهر يرمينا

أهكذا تنقضى دوماً أمانينا
تجري بنا سفن الأعمار ما خرَّ
بحيرة الحب حياك الحيا فلكلم
قد كنتُ أرجو ختام العام يجمعنا
فجئتُ أجلس وحدي حيثما أخذت
هذا أنينك ما غيرتْ نغمته
وفوق شاطئك الأمواج ما برحت
وتحت أقدامها يا طالما طرحت
هل تذكرین مساءً فوق مائلك إذ
والأرض والبحر والأفلاك مصفية
إلا المجاذيف بالأمواج ضاربةً
إذا برنة أنغام سحرتُ بها
والموج أصغى لمن أهوى وقد تركت
يا دهر قف فحرامْ أن تطير بنا
ويا زمان الصبا دعنا على مهل
أجب دعاء بنى المؤسي بأرضك ذي
خذ التعيس وخذ معه تعاسته
هيئات هيئات أن الدهر يسمع لي
أقول لليل قف والفجر يطرده
فلنغنم الحب ما دام الزمان بنا
ما زال في المؤس والنعى تصرفه
تالله يا ظلمة الماضي ويا عدماً

فما الذي أنت بالأيام تجرينا
أترجعين لنا أحلام ماضينا
تبقين بالدهر والأيام تزرينا
ففيك عهد التصابي بات مدفونا
فلبيق ذا الذكر تحييه فيحيينا
أو حركت قصبات عطفها علينا
صوتا يردد عنا ما جرى فيينا
من الردى رحم الله المحبينا

ما زال لجك لل أيام مبتلعا
ناشدتك الله قولي وارحني ولهي
فيما بحيرة أيام الصبا أبدا
تذكار عهد التصابي فاحفظيه لنا
على مياهك في صفو وفي كدر
وكلما صافحتك الريح في سحر
أو فاح في الروض عطر فليكن لك ذا
أحبها وأحبته وما سلمت

واللغة العربية غنية بهذا الموضوع، وعادة شعرائنا في الغزل برهان واضح على تأثير المرأة على قرائهم؛ لأن هذه الصورة الجميلة التي يرسمها الشاعر العربي في غزلياته يستحيل أن تكون وهمًا محسناً، ولا بد أن الشاعر أخذها عن صورة حية، وكل معنى جميل في الغزل لا يجيء عفواً دون أن يكون في دماغ صانعه صورة يرسم عنها، إلا أن البعض تفردوا وجرت لهم وقائع عُرفوا بها وعُرفت أسماء الجميلات اللاء أو حين إليهم بغرائب القول، والبعض الآخر لم يبق لدينا من جميلاتهم إلا رسم شعري مبهم يصدق على كل جميلة، ولا يغرب عن السامعين أنني أعني بقولي الشعراء المجددين لا المقلدين الذين ينظمون دون أن يشعروا من أنفسهم بتلك القوة التي تحرك الجمام، والذي أراه أن كل شعراء العرب كانوا عشاقاً، والغزل المنسجم في الشعر العربي لا تراه في اللغات الأخرى، ولا تجد للمرأة في سائر الألسن وصفاً يبلغ من الرقة واللطافة وبلاجة المعنى وحسن التشبيه ما بلغ وصف شعراء العرب لها، فأين نجد نذًا لبيت المتنبي:

ويسمون عن درٌ تقلدن مثله كأن التراقي رُصعت بالمباسِم

وبيت ابن معتوق في وصف رقة الزند:

لسانا من الأكمام سيل الجداولِ وزندين لو لم يمسكا بدمالج

ولو أن الشعراء العرب صرفوا قواهم الشعرية إلى سائر المatic كـما صرفوها إلى الغزل لما بقي بـيت من الشعر لم يُنقل إلى سائر اللغات الحية؛ لأنـهم جازوا كلـ حدًّا هذا الشـأن فـلم يـلـحقـهم فيـ بلـاغـة ماـ كـتـبـوه شـاعـرـهـ شـعـرـاءـ الغـربـ أـئـيـاـ كانـ، وـمـنـ ذـاـ يـبـلـغـ رـقـةـ إـمـرـئـ الـقـيسـ وـهـوـ يـنـشـدـ هـذـهـ الـبـيـتـ بـيـنـ صـهـيـلـ الـخـيلـ الـعـتـاقـ وـصـلـيلـ الـبـيـضـ الـرـقـاقـ:

أـغـرـكـ مـنـيـ أـنـ حـبـكـ قـاتـلـيـ وـأـنـكـ مـهـمـاـ تـأـمـرـيـ الـقـلـبـ يـفـعـلـ

فـإـنـ هـذـاـ الشـعـرـ وـإـنـ أـدـرـكـ بـعـضـهـمـ عـلـىـ قـائـلـهـ يـسـيـلـ رـقـةـ، وـيـبـقـىـ مـاـ بـقـيـ قـلـبـ يـخـفـقـ
بـعـاطـفـةـ غـرامـ.
وـقـوـلـ أـبـيـ فـرـاسـ:

مـعـلـتـيـ بـالـوـصـلـ وـالـمـوـتـ دـونـهـ إـذـاـ مـتـ عـطـشـانـاـ فـلـاـ نـزـلـ الـقـطـرـ

وـقـوـلـ جـرـيرـ:

إـنـ العـيـونـ التـيـ فـيـ جـفـنـهـ حـورـ
يـصـرـعـنـ ذـاـ اللـبـ حـتـىـ لـاـ حـرـاكـ بـهـ
قتـلـنـاـ ثـمـ لـمـ يـحـيـيـنـ قـتـلـانـاـ
وـهـنـ أـضـعـفـ خـلـقـ اللـهـ إـنـسـانـاـ

وـقـوـلـ اـبـنـ رـبـيـعـةـ:

صـلـيـ وـاغـنـمـيـ أـجـرـاـ فـمـاـ وـرـدـةـ الرـبـىـ
تـدـوـمـ عـلـىـ الـحـالـ وـلـاـ وـرـدـةـ الـخـدـ

وـقـوـلـ عـنـتـرـةـ:

وـوـدـدـتـ تـقـبـيلـ السـيـوـفـ لـأـنـهـاـ
لـمـعـتـ كـبـارـقـ ثـغـرـكـ المـتبـسـ

وـقـوـلـ مـجـنـونـ لـيـلـيـ:

أـصـلـيـ فـمـاـ أـدـرـيـ إـذـاـ مـاـ ذـكـرـتـهـاـ
اثـثـتـيـنـ صـلـيـتـ الضـحـىـ أـمـ ثـمـانـيـاـ

وقول خليل أفندي الخوري:

عفافك أهواه وإن كان قاتلي فإني منه اليوم شاك وشاكر

وأمثال هذا الجميل كثير لا يخلو منه كتاب عربي، وكله ناطق بحياة الفكر الشرقي وحده، وبلاعة تصوره وعومه في بحر الخيال، ومن قرأ عينية ابن زريق ونونية ابن زيدون ودالية النابغة لا يسعه إلا الإعجاب والإقرار بأن المرأة وحدها تقدر أن تخلع جمالها على الشعر، وأنها الهيكل الوحيد الذي يسرج فيه نبراس الذكاء، وللعرب حكايات بهذا الشأن فإن قصيدة معاوية الشهيرية ومطلعها:

نالت على يدها ما لم تزله يدي نقشاً على معصم أوهت به جلدي

لم يفتح عليه بها لولا المرأة، والذي يروى أن هذا الرجل لم يكن قادرًا على النظم فحبسه ذروه؛ لأن من العار عندهم أن يكون فيهم من لا يقول الشعر، فجاءته بنت عمه تختال بقوامها العسال وقد كشفت عن معصمها الموثي ووجهها الفتان، فانطلقت على الفور عقدة جنانه وجرى الشعر على لسانه.

وقد يمكن الشاعر أن يغنى الغزل من غير أن يكون عاشقاً ذاتاً معينة؛ لأن مجرد التصور يقود إلى الأفكار البدعة، والألفاظ الجزلة الرقيقة والتصورات الشائقة، فالمرأة تفعل بالفكر حاضرة بذاتها أو رسمها وغائبية مجرد تصور حسنها وشكلها، وذلك غاية ما يمكن الصعود إليه من السلطة والسيادة، وبواحدة من هاتين القوتين اندفع سيل القرائح العربية من أيام الجاهلية إلى المولدين، وكثير من شعراء الأندلس في الماضي، وشعراء العراق ومصر والشام لعصرنا الحاضر لم ينبغوا إلا بخضوعهم لهذه السلطة السماوية، وإننا لا نعلم من هي تلك الجميلة التي تُوحى إلى هذا وذاك، ولكن لتكن من كانت فإن العالم الأدبي مديون لها وهو يمجدها وإن جهل اسمها، وإنني أذكر في هذا العرض نكتة عن اليازجي كبير شعرائنا رواها لي أبي، وكان كثير التردد عليه، قال: كان الشيخ إذا ضاقت قريحته يُنادي يا أم حبيب فتأتي زوجته وتقف أمامه حيناً، ثم يتسم لها ويصرفها ويعود إلى نظمها الشائق وقد فتح عليه.

ولا يسعني بعد أن وصلت إلى عصرنا الحاضر، ونوهت بذلك النهضة الأخيرة في مصر والشام والعراق التي كان بين زعمائها الأسير، والأحدب، والإنسى، وأسعد طراد،

والعمري، والموصلي، والإيباري وغيرهم كثير من اتصلت بينهم وبين الشيخ ناصيف البازجي أسباب المراسلة، إلا أن ذكر طريقة جديدة في الغزل أحد إليها شاعر سوريا المشهور خليل أفندي الخوري صاحب قصيدة الشاعر التي ذكرت بعضها في مطلع الخطاب، فقد جمع بها بين رقة ألفاظ زهير، وخففة روح موسى، وكانت الصفة الغالية في شعره تزهه عن آفتى التقليد والتعقيد، وحصوله على مزيتي السهولة والامتناع، وقد أحبت أن أقدم لكم مثلاً من هذا الشعر الجديد، فأخذت أول قصيدة وقعت عليها عنوانها الياسمين وهي طويلة أجترئ ببعضها.

وحكاية الحال أن الشاعر رأى القمر في نجواه يرسل له نوره الضئيل فأرسل له شكواه.

ما لي رأيتك في السماك الأعزل
هل هاجمتك من المحبة آفة

أحسداً من الحبيبة ذبت يا قمر أم سقماً بهواها أم حيلة لحت في شكل السوار
لتجعلك من بعض حلها.

طرحتك من أطراف تلك الأنمل
لست المعد لمثلها فترحل
زهر بجنات البهاء يفوح لي
فأردت تنزل في المكان الأول

لا لست غير قلامة من ظفرها
فاسبح بأكتاف الفضاء مضيعاً
أمللت من زهر السما فرغبت في
أم هل حسدت الياسمين بفرقها

لا لا تنزل يا سمير العاشقين فيصييك منها ما أصاب الياسمين قطعه المحب ظلماً
عن أغصانه، وكتب أسرار الهوى بين أجنانه ثم جعله إلى الحبيبة رسول شوقة وأحزانه،
حتى إذا قارب إليها الوصول واستأند بالدخول.

عبد لعبدك لاثماً للأرجل
هذا حديث مشكلاً في مشكل
لم أدر من لكن بليت بما بلوي
خطر النبول من اللهيب المشعل

نادته من الباب قال لها أتى
قالت ومن عبدي ومن ذا عبده
فأجابها رجل وقعت بأسره
دنف نحيل مثل أوراقي على

عني فهيا نحو غيري واسأل
تدري الخفيّ جهلت أم لم تجهل
ذا وصفه أما اسمه فمحجّبُ
أو فانظري ما خط فوق صحائفِي

فتلتفت تلفت المشتاق وإذا بها تقرأ بين تلك الأوراق سطراً لم يُخط بقلم ولم يُكتب
بدمع ولا بدم.

إن المحبة للخليل الأول
أسرار عهد بالوفاء مجمل
حتن نعم عبد قديم كان لي
رفقاً بأول عاشق لزم الهوى
وهناك لامسها الهوى وتدكرت
فتقبسمت أنسًا وقالت بعدما

ما حاله بعد هجري وبعادي وهل لم يزل مقيداً على عهد ودادي، بل وهذه أنفاسك
الساحرة تحمل تحيته إلى فؤادي فأهلاً برسول الحبيب، كنت له رسولاً فكن لرأس
الحبيبة إكليلاً.

وغدا بقول لها أنا الملك العلي
وقدت تداعبه بتلك الأنمل
فعلا على عرش الجبين بمجدده
وغدا يناجيها بأسرار الهوى

حتى إذا طلع النهار علقت عروقه بأطراف اللهيب فذوى فنزعته عن رأسها غضبي،
ورمت به الأرض فهو وقامت له: ما عدت يا ياسمين تنفع الحسن ولا ينفعك الهوى.

فانساب منظرًا على وجه الثرى
مثل القتيل وإنما لم يقتل

فيما قمر السماء هذى فعال حبيبي مع من سرى في طوعها، فاترك غرورك وارحل
ويا إخوان الهوى.

أضحي حديداً فأضربوا ليلين لي
بالنار ينسبك الحديد وينجلي
هاتوا المطارف إن قلب حبيبي
أو اضرموا نار المحبة حوله

وقد سمعتم لعهد قريب في حفلة شمس البر شاعرًا يصف لكم الجمال والكبرياء
بأرق ما يوحيه الجمال إلى النقوس، فعرفنا منه أنه شاعر مفتون لا بحمرة الخدود وسود
العيون، وعلمنا شعره أن مس القلوب لمن قرن مثله تواضع المحب بكبرياء المحبوب.

ولم ينحصر تأثير المرأة على دماغ العقلاء، بل جاوز المجانين، فأجرت على لسانهم الحكمة والسحر، وأقامت صلة بين الجنون والشعر، والأمثلة كثيرة أكفي منها بما رواه ابن يزيد النحوي قال: مررنا يوماً بمحنون عرفناه من قبل فسألناه ما تجد فقال:

الله يعلم أنني كمدُّ	لا أستطيع أبُث ما أجدُ
نفسان لي نفس تضمنها	بلدُ وأخرى حازها بلدٌ
وأظن غائبتي كشاهدتي	فكانها تجد الذي أجدُ

قال: فقلنا له أحسنت، فأجاب ملثي يقال: أحسنت، وأوْمأ إلينا بشيء يريد أن يضر بنا به. فانظروا أين بلغت سطوة الألحاظ التي يقل بها تشبيهها بالسهام.

فيما أيها الشعرا، عظيمة سلطكم على القلوب ولا سيما إذا خضعت لسلطة ذلك الكائن اللطيف فاعرفوا كيف تمزجون الخضوع بالأمر، والذل بالأنفة، واعلموا أن أقوالكم لا تقوى إلا إذا سرى إليها هذا الضعف، ولكن حرام على القائلين الشعر أن يجعلوه لغة الرياء والتمليق والمدح الكاذب، أنت حر أن تأكل ما تشاء، وتلبس ما تشاء، وتسكن أين تشاء، ولكن لست حرًا أيها الشاعر بعد أن عرفت أي مقام تعدد لك الكائنات، أن تقول ولا يرمي قوله إلى غاية تُفْيد ولا يكون لكلامك نتيجة تُحَمِّد. لك أن تُضحي مالك، لك أن تُضحي دمك الذي هو أغلى من مالك، لك أن تُضحي فكرك الذي هو أغلى من دمك، لك أن تُضحي حبك الذي هو أغلى من فكرك، ولكن ليس لك أن تُضحي الحقيقة والصدق، وتحل أشعارك جعة الغش والمداهنة، خلقت لتهذب النفوس، وتُنير العقول، وتفتح أبواب الحقائق الأبدية فuar عليك أن تحول الشعر إلى مهنة لا تجر غير الهوان، انظر إلى الطبيعة بعين وللإنسانية بعين، وتعلم أن تُتقن تصوير الأولى وتحسن تهذيب الثانية فتقوم بالواجب نحو الجمال؛ لأنك مثال الجمال.

والآن لو كنت من الشعراء لوصفت لكم شيئاً من حبي، أو لو كنت من المحبين لأنشدتكم شيئاً من شعرني، وقد طلبت ختاماً لهذا الخطاب ففتشت في دفاتري العنق شأن المفلس؛ فإذا بي أقع على قصيدة فيها تنويه بمقام المرأة في الكون، وتأثيرها على الإنسان في شئون حياته فأخذتها وخلعت عنها عنوانها القديم اليأس وعمدتتها باسم المرأة والشاعر، وجعلتها خاتماً حديثي عن المرأة والشعر.

المرأة:

والعشب للأحباب مَدْ وسادا
شمس الغرام تذُوبُ الأكبادا
وتتحرك الأوتار والأغواودا
أعدمت نطقاً أم عدلت فؤادا

عد للهوى فربى عيه قد عادا
والثلج ذاب على الجبال وأقبلت
ومواكب الأطيار ترقص في الهوا
فعلم شعرك لا يكون لها صدى

الشاعر:

هيئات قلبي أن يكون جمادا
حولي فاعدمني هدى ورقادا
ملت بميدان الحياة جهادا
وبياض آمالي استحال سوادا
بعدي غصونك في الهوى تتهاوى
فلكم بكيت نظيره أغواودا
فمضى وصار له الخريف حدادا
إلا وصيرها الشقاء قتادا
فيعيدها اليأس الجديد رمادا
فلقد كفاني شقة وسهادا

لا لا فقلبي قد عرفت خفوفه
لكن شر الناس مد ظلامه
لم أبلغ العشرين بعد وهمتي
وسواد شعري ما تغير لونه
سامر يا روض الشبيبة تاركاً
إن كان عودي في ظلالك أخضرا
كم معطف كان الربيع له حلّي
لم تجنِ منك يداي يوماً وردة
نار يجددها الرجاء بأضلعي
فدعني اعتراضك واحلعي عني الهوى

المرأة:

حتى طمعت أن تفك قيادا
شابت نواصيه وزاد فسادا
تركـت عباد الله لي عبادا
مني دليلاً أين سرت وزادا
في نور وجهي الكوكب الوقادا
وأرتكـ أنوار الخدود «جمادي»
ضعفـي لضعفـكـ قوةـ وعمـادـا

عجبـاً أتنـسىـ أنـ قـيـدـكـ فـيـ يـديـ
ملـ الصـبـيـ منـ الـحـيـاـ وـغـيـرـهـ
أـتـرـاكـ لـمـ يـبـلـغـكـ أـنـ فـضـائـلـيـ
هـلـ سـرـتـ فـيـ قـفـرـ الـحـيـاـ وـلـمـ تـجـدـ
هـلـ فـاتـكـ الـقـمـرـ الـمـنـيـرـ وـلـمـ تـجـدـ
هـلـ رـمـتـ «ـنـسـيـانـاـ»ـ بـعـيـدـ مـرـورـهـ
هـلـ شـئـتـ إـدـراكـ الـعـلـاءـ وـلـمـ يـكـنـ

أجدى بمخترعاته وأجادا
أو عمرت لولاي منك بلا
دتف بطبعك ما اشتته وأرادا
لو كنت وحدك هل ذاك أفادا
لو لم يكن حكمي بك استبدادا
أو في الجحيم ينashed الوقاد^٢
ويزور في عمرانها بغدادا
أو عبد عبس رقة وجلا
سلمى وعدد وزينياً وسعادا
فوق المنابر بالمحبة نادى

هل كان عقلك لو غضبت نواطري
تلك الصنائع والفنون هل ارتفت
هل نال في الأمراض لولا علتي
يا أيها الرجل الكنود لنعمتي
هل كان إطلاق القرحة نافعاً^٣
من كان في الفردوس ينشد ضائعاً
من راح يروي مجد أندلس لنا
من لقب الملك المضل في الهوى
أنسيت في واد العقيق وضاله
أو لست أول شاعر في شعره

الشاعر:

وأنوب لا طمعاً ولا استنجادا
أمي فلولا الأم مجدك بادا
تحيي العيال وتحضن الأولادا
تنسي السقيم الطب والعوادا
في البعد عنك ومن يُطيق بعادا
ضاء الوجود بها وحكمك سادا
لولاك ما عرف الورى إنشادا

عفواً فيها أنا ذا أقر بذلك
أجثوا على أقدام جنسك ذاكراً
وأجل فيك رفيقة العمر التي
وأكرم الأخت التي بحنانها
ضل الذي ظن الحياة جميلة
والله خط على جبينك آية
الخلق شعر أنت بيت قصيده

^٢ يزيد الفردوس المفقود للتن.

^٣ يزيد كتاب الجحيم لدانتي.

اِلْتَارَة للاسْتِشَارَات



اٰندازه للاسٰتشارات